

الرؤيا البرزخية عند أدونيس
(المنطلقات الوجودية والأبعاد الجمالية)

عبد الحميد شكيل
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

تتقاطع الرؤيا الشعرية عند "أدونيس" مع الرؤيا الصوفية، ذلك أنهما يلتقيان عند الرؤيا البرزخية التي تنبأها أدونيس في كتاباته النقدية والشعرية على حد سواء. تقوم الرؤيا البرزخية أساساً على الخيال، وعلى الحلم، والكشف، بغرض الوصول إلى المعرفة المطلقة، وهي تناقض المعرفة المباشرة. عالج "أدونيس" قضايا الوجود على اختلاف مراتبه، وتجلياته، وذلك عبر الحلم القائم على التخيل، وسيلته في ذلك الرؤيا البرزخية، وهي مرحلة وسطى ما بين الحس والفكر، وبين ما هو معلوم، وما هو مجهول؛ فتكون اللغة بذلك لغة برزخية، رمزية، خيالية، متحولة، مشرعة على كل تأويل.

Résumé

المقدمة:

اهتم "أدونيس" بالتجربة الصوفية، لأنها تضمنت تجربة منفردة، بلغة منفردة أيضاً، إذ تجاوزت المعرفة التي انبنت على العقل، وتبنت الرؤيا، وأولتها عناية خاصة، حين جعلتها وسيلة لفهم الوجود، وكشف أسرارها، ومنطق بنائه فالرؤيا عندهم هي سبيل للكشف عن كل ما هو غائب مستور، وذلك بعد التخلص من كل ما يحول دون المراتب العليا، والتحقق بالمقامات. تمثل الرؤيا ما ليس موجوداً على أنه موجود، وذلك بوساطة التأمل، والكشف، والخيال؛ كما أنها شعور بأن ما يراه الآخر غير ممكن الوجود موجود، أو محقق، بحيث يظهر لصاحب الرؤيا كأنه أمام عينيه⁽¹⁾.

إن غاية النصوص الصوفية هي الكشف عن رؤيا تتجاوز كل معرفة، وكل علم؛ فلا يغدو للمنطق، ولا للمعرفة القائمة على أسس العقل أية قيمة، لأن ذلك، في رؤيا المتصوفة، لا يذهب بالإنسان بعيداً.

Les visions poétiques chez "Adonis" se croisent avec celles du soufisme, car ces deux dernières se rencontrent avec la vision "isthme" qui se reflète dans les écrits critiques "Adonisiens" et ceux de la poésie même. La vision isthme se base essentiellement sur l'imagination et le rêve qui permettent l'accès à la connaissance absolue, ce qui est contraire à la connaissance directe. Ainsi, "Adonis" a traité des questions de l'existence dans ses différents degrés et révélations à travers l'imaginaire et l'image onirique qui est intermédiaire entre le sens et l'intellect, entre ce qui est connu, et ce qui est inconnu. De sorte que son langage "Barzakh" soit symbolique, imaginaire et mutant, ouvert à toutes interprétations.

- طبيعة الرؤيا عند الصوفية:

تقوم الكتابة الصوفية على حرية الممارسة للغة، بعيدا عن المقاربات المنهجية القائمة على النظر والفكر. فهي تقوم في الأساس على تجربة روحية ذوقية، وتكون الكتابة تبعا للحال أو المقام الذي يصل إليه الصوفي؛ فإذا الكتابة إشارات ورموز، بعيدا عن الحرف، لأن الحرف هو نفي للمعنى/ الرؤيا، بل نفي للوجود في حد ذاته. يصرح "النقري" بذلك في كتاب المواقف: موقف "بين يديه"⁽²⁾ "وقال لي: الأفكار في الحرف، والخواطر في الأفكار، وذكرى الخالص من وراء الحرف والأفكار، واسمي من وراء الذكر".

تتساوى الأضداد في رؤيا "النقري"، وتصير في مرتبة واحدة، حينئذ، تمحي الحدود اللغوية الفاصلة، ويصبح الحديث عن الشيء هو حديث عن ضده في الوقت ذاته، فيكون القائل خارجا عن حدود الجملة الجاهزة، وعن اللغة المألوفة، والإشارة القريبة. وبذلك، فإن اللغة في هذا المقام هي لغة برزخية، لأنها تعتمد الإشارة، "والإشارة برزخ بين القول والصمت، تهب الشيء إماكن التجدد"⁽³⁾. من أجل ذلك، ينبه "النقري" إلى خطورة الوقوف عند حدود القول، وذلك في موقف "ما لا ينقال". فيقول:⁽⁴⁾ "وقال لي: ما ينقال يصرفك إلى القولية، والقولية قول، والقول حرف، والحرف تصريف، وما لا ينقال يشهدك في كل شيء".

يحذر "النقري" في هذا الموقف من خطورة انفصال اللفظ عن المعنى، وذلك حين يقرأ اللفظ لذاته، من دون الوقوف عند ما يتضمنه، أو يدل عليه، لأن القولية نافية لما ينقال، والقول يختزل إلى حرف، وفي كل ذلك تنبيه منه "إلى مخاطر إغلاق الدائرة في حركة لفظية، كلامية، هامشية، تفصيلية، مشتتة، ليست كافية للإحاطة به، بل إن الأمر إذا اقتصر عليها، أصبحت مستبعدة لغيرها، فيتقزم الوجود"⁽⁵⁾. وتعد اللغة في رؤيا ابن عربي كائنا حيا، بل هي الوجود، لأن "ما في الوجود صامت أصلا"⁽⁶⁾. بهذه الرؤيا تتخذ الكتابة بعدا وجوديا، لأنها كتابة للوجود في بعده المادي والغيبي/ الروحي؛ فالعالم "ليس فقط مكانا لأشياء، ومواد، وأشخاص، وأحداث، ولكنه صور دالة من جهة، ورمزية من جهة أخرى"⁽⁷⁾. لأن الإنسان ذو بعدين؛ بعد روحي، وبعد مادي، فتعتمد الكتابة بذلك على الرمز المبني على الخيال المطلق، والشامل، لأنه لا يشمل الإنسان وحده، بل الموجودات كلها، فما الإنسان سوى واحد من هذه الموجودات، فتكون الكتابة أوسع من أن تنحصر في الوظيفة التعبيرية، لتصبح دالة على حدث جوهرى للوجود، وما الحرف سوى تمثيل بسيط للكتابة في صورتها الخطية، فيكون الحرف، بالكلمة، فاللغة هي الوجود. وبذلك، فإن تجربة السالك في دروب الكشف هي أوسع وأعمق من أن تستوعبها عبارة جاهزة، ترتبط بمدرجات مباشرة، فتعتمد الكتابة الصوفية التلميح والإشارة، بدل التصريح والعبارة.

الرؤيا الأدونيسية والرؤيا الصوفية:

يماثل "أدونيس" بين لغتي الشعر والتصوف، لأن كليهما يقوم على الرؤيا والكشف. يقول "أدونيس": "لعل خير ما نعرف به الشعر الجديد هو أنه رؤيا، والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السائدة... أن نرى في الكون ما تحجبه عنا الألفة والعادة، أن نكتشف وجه العالم المخبوء، أن نكتشف علائق خفية"⁽⁸⁾. يتخذ مفهوم الرؤيا عند "أدونيس" أبعادا فكرية وإنسانية، فيقول: "إذا أضفنا لكلمة رؤيا بعدا فكريا وإنسانيا، بالإضافة إلى بعدها الروحي، يمكننا حينذاك أن نعرف الشعر الحديث بأنه رؤيا، والرؤيا بطبيعتها هي تغيير في نظام الأشياء، وفي نظام النظر إليها، هكذا يبدو الشعر الحديث، أول ما يبدو تمردا على الأشكال والمناهج الشعرية القديمة، ورفضاً لمواقفه وأساليبه التي استنفذت أغراضه"⁽⁹⁾.

يؤسس "أدونيس" انطلاقاً من تحديده لمفهوم الرؤيا، قضايا كثيرة، يرى أنها أساس كل شعر مبدع أصيل، وذلك حين يكون الشعر إشارات ورموزاً، ينفلت فيها المعنى . فمعنى الشعر "لم يعد وظيفة ذهنية، أو فيضا عاطفياً، أو جزء من البلاغة والبيان ، أو وصفاً، أو طرباً للمتعة، أو التسلية، التعتية... صار الإبداع الشعري لي وسيلة لاكتشاف نفسي، واكتشاف الإنسان والعالم"⁽¹⁰⁾. ويحدد "أدونيس" طبيعة الشعر الذي يسعى إلى أن يؤسس له بقوله⁽¹¹⁾: "إن الشعر الجديد باعتباره كشفاً ورؤياً، غامض، متردد، لا منطقي، ولهذا لا بد له من العلق على الشروط الشكلية لأنه بحاجة إلى مزيد من الحرية".

يسعى الشاعر الرؤيوي إلى تجاوز الرؤى السائدة ، والكتابات المألوفة، محاولاً في الوقت ذاته إعادة بناء عالم مبتكر، يشمل الكون والإنسان، بل كل الوجود.

تصطدم الرؤيا الشعرية عند "أدونيس" مع معظم الثوابت التي أوجدت الثقافة العربية الإسلامية، وذلك على المستويين الشعري والنقدي؛ استقطبت هذه الرؤيا جميع طاقات الشاعر، فتبلورت بذلك ثقافته، وشغلت عالمه الداخلي، واستغرقت كتاباته، واصطبغت بتلاوينها أشكاله⁽¹²⁾.

تهدف الرؤيا عند "أدونيس" إلى الوصول للمجهول ، بحثاً عن شيء جديد، فهي رؤيا "تخترق الواقع إلى ما وراءه"⁽¹³⁾، فيطلق العنان لخياله، منتصلاً من الرؤى الجاهزة ، والأشكال المألوفة، منطلقاً إلى عوالم خفية، تتجاوز الواقع المحسوس، محاولاً في الوقت ذاته إيجاد علاقات ووشائج بين العالم المنظور، والعالم المخبوء/الغيب، وسيلته في ذلك جعل الأفكار المجردة في قوالب محسوسة ، والأشياء المحسوسة أفكاراً مجردة⁽¹⁴⁾.

تعددت مشارب "أدونيس" الرؤيوية، وتشابكت، وليس من السهل ضبط تلك المشارب التي نهل منها الشاعر، فبلورت آراءه، واصطبغت بها كتاباته، غير أن اللافت للانتباه في كتابات "أدونيس"، سواء أكانت نثرية أم شعرية، هو حضور الرؤيا الصوفية، كونها تتقاطع مع ما يطمح إليه.

ولعل أبرز ما شدّ "أدونيس"، في الكتابات الصوفية، هي "الرؤيا البرزخية"، فقد ورد هذا المصطلح في مؤلفاتهم، وفي أشعارهم، هذه الرؤيا تقوم أساساً على الخيال.

إن سبب اختيارنا لفكرة الخيال المبنية على الرؤيا البرزخية، مرده إلى أن الدراسات النقدية العربية الحديثة لم تتناول هذه الفكرة بقدر كاف ، لدى الصوفية عموماً، أو لدى ابن عربي خصوصاً، إذ يعد ابن عربي رائداً في هذا الباب، فهو الذي عرّف الخيال، وأعطى له مصطلحات، وأسس له قواعد، ضبطت معناه، وبيّنت حدوده. فضلاً عن ذلك، فإن كثيراً من النقاد العرب قد أساءوا فهم كتابات "أدونيس"، وإبداعاته الشعرية⁽¹⁵⁾، لأن هذا الأخير اعتمد في معظم ما أبدعه من شعر على الرؤيا البرزخية، انطلاقاً من رؤيا ابن عربي، سواء في جانبها التصوري، أم في بعدها الجمالي.

لقد كانت لدى الصوفية رؤى خاصة متفردة في بلورة المفاهيم، منطلقين في ذلك من الوجود، ومعتدين على منهج يتبنى فكرة "المعراج الروحي الذي يحقق الاستعلاء على كل شيء، ويجعل الروح بعيدة عن كل ما يحول دون الكشف لما هو غائب مستور"⁽¹⁶⁾.

الرؤيا الصوفية ومفهوم الوجود:

تعتمد الصوفية في تجربتها على رؤيا خاصة للوجود، ، وتعد رحلة الصوفي عبر مقامات التدرج للأعلى، والأحوال التي تتناوبه، الأساس الذي يحقق له رؤياه، هذه الرؤيا تقف عند المطلق، تكشف عنه، وتشير إليه، وتغترف من منابعه، عبر الحدس والذوق، سعياً للوصول إلى المطلق، عبر البصيرة بدل البصر، فكان الخيال

خير وسيلة لبلوغ المعرفة المطلقة، عبر رحلة تجريدية مضادة للمعرفة المباشرة التي تقف عند حدود المعاني العقلية، وهي قوى قاصرة عن إدراك الوجود في شموليته وحقيقته.

أما الصوفي، فإنه يتجاوز تلك القوى المفكرة القاصرة في منظوره، معتمداً على قوى الإنسان الباطنة بوساطة المجاهدة، والرحلة، والعبور، فيستحضر الوجود المطلق انطلاقاً من ذاته، لا من عناصر خارجية، أفرزتها معطيات جاهزة، تعتمد على النقل والقياس والاستدلال، بعيداً عن الذوق والكشف والاستبصار.

من أجل ذلك، عُدَّ الخطاب الصوفيّ مصدراً خطراً على المنظومة المعرفية القائمة على العقل، لأنه يتعارض مع مبادئ الشريعة، والفلسفة، والبلاغة القائمة على المصادقية الموضوعية؛ وهو بذلك يخلو من أي معرفة تتطابق مع ما هو واقعي أو عقلي، فأحيل بذلك إلى دائرة الوهم/الخيالي.

إن هذا الوهم/الخيالي، المنبوذ من المنظومة المعرفية السائدة، يعد في النسق الصوفي، جسراً للعبور إلى عوالم خفية فاعلة، تحيل إلى أبعاد جمالية فاتنة.

إلغاء ثنائية الواقعي العقلي والخيالي:

يقوم الخطاب الصوفي على إلغاء الثنائية بين الواقعي/والخيالي، فيتحوّل الخيال بذلك إلى أداة لإنتاج المعرفة، لأن للخيال قوى خلاقية مبدعة، وهو أصل كل إدراك عقلي، لأنه شامل لكل عناصر الوجود، وليس ينحصر في الجانب الذهني فحسب. يقول ابن عربي⁽¹⁷⁾:

إنما الكونُ خيالٌ وهو حق في الحقيقة

وبذلك، فإن الخيال يشمل العقل، فلم يعد للتمييز بين ما هو خيالي، وما هو واقعي أي معنى، بل إن هذا التمييز نفسه يصير وهمياً⁽¹⁸⁾.

إن الكشف القائم على الحدس وعلى الوجدان هو مصدر المعرفة عند الصوفية، معرفة تتجاوز تلك التي يقرها العقل في حدود المسلمات والإدراك المباشر.

وبذلك فإن بلاغة الخيال عند الصوفي ليست بلاغة إقناعية، ضمن حدود صورية، وليست نمطاً من الأساليب القائمة على فن القول، من حيث الزينة، والأثر في المتلقي؛ تكمن بلاغة الخيال في كونه انتقالاً "من قانون الوضوح ومستلزماته التمييزية، إلى قانون التحول والإندماج بين عناصر الوجود الذاتي، والموضوعي العيني المتعالي، إلى حال الترميز الكلّي الشامل، لكشف أحوال المعاني وصيروراتها من الظاهر إلى الباطن، حيث الكونُ والمخلوقات كلمات الله، واللغة ليست مدونة تقابل الكلمات بالأشياء فحسب، بل إنها جزء من هذا الكون"⁽¹⁹⁾.

بهذا المنظور يسعى الخطاب الأدونيّسي إلى تجريب المطلق، عبر أسئلة لا تكاد تنتهي حتى تشفع في الابتداء، وبلغة مشرعة على كل تأويل، فهي لغة ينفلت فيها المدلول، لأنه مجرد إشارة عابرة، وليس سوى قرينة لأحوال غامضة مستعصية على الكشف؛ هو في منطق تشكيله، وبنائه، ورموزه، متعال، غير أنه مُلامس للوجود في جميع مكوناته، وأدق عناصره، متخذاً من الخيال، وبالخيال فعلاً يتحول، ويحوّل باستمرار، في حركة دائبة لفعل الإبداع الخياليّ الشعري/الوجودي، لأن الخيال هو سر الوجود، وسر استمراره، وتجليه واغتنائه.

علم الخيال والوجود/المثال:

يعتبر ابن عربي أن الخيال يؤسس الوجود، ويحكمه، يقول في هذا الشأن⁽²⁰⁾:

لو لا الخيال لكنا اليوم في عدم
ولا انقضى غرض فينا ولا وطُر
"كان" سلطانها إن كنت تعقلها
الشرع جاء بها، والعقل، والنظر
من الحروف لها كاف الصفات فما
تنفك عن صورٍ إلا أتت صورٌ

من هذه الأبيات، يتبين لنا أنَّ القوة التي تحرك الخيال على مستوى الخطاب، ومنها الخطاب الإلهي، إنما هي فعل التشبيه الذي يعد سلطان الخيال، وبذلك تصبح قراءة التشبيه بعيدة عن النسق البياني الذي ساد في الثقافة العربية، وإنما تتم القراءة ضمن أفق آخر. لأن الفعل اللغوي "البياني يصبح في الخطاب الصوفي ذا بعد وجودي، بعدد من الاعتبارات التجريدية أو المجازية، فللحروف والكلمات ذوات وحروف، تشاكل حياة كل مخلوق"⁽²¹⁾.

برزخية الخيال:

يقوم الخيال على موقع وسط، يجمع ويفصل في الوقت ذاته الوجود (الماهية)، بالموجود (الكيف)، ومن ذلك، تنفتح آفاق واسعة للخيال، لها منطق خاص في بنائها وفاعليتها. تتميز فاعلية الخيال في قدرته على إزالة الفروق بين الأشياء والمدرجات، بحسب قدرة الذات المدركة، وعلى طبيعة المدرجات أيضاً، كل ذلك عائد إلى الأصل الميتافيزيقي لفعل الخيال، على اعتبار أن هذا الأخير إنما هو عالم "المثال"، الذي يقع بين عالم الأجسام، وعالم الأرواح المجردة، إنه البرزخ⁽²²⁾.

جمالية الرؤيا البرزخية:

تكمّن جمالية الرؤيا البرزخية، في كونها حداً فاصلاً بين ما هو معلوم وما هو مجهول، وبمعنى آخر، البرزخ هو مكان التحول، أي مكان الصور، والتجليات. إن الحقيقة الكونية بالنسبة إلى "ابن عربي" تقوم على ثلاث مراتب: علوية، وهي مرتبة التجريد، أو المعقولات، وسفلية، وهي مرتبة الحس، وبرزخية، وهي الجامعة بين هاتين المرتبتين، بمعنى أنها معقولة محسوسة في الوقت ذاته⁽²³⁾.

بناءً على ما سبق ذكره، يمكن أن نستنتج أهم خصائص البرزخ فيما يلي:

1 - الرؤيا البينية (رؤيا ما بين عالمين):

ويعني بذلك الفصل بين الجواهر، والأزمنة، والأماكن، وبين الأفعال والأعراض، وهو بذلك يشمل جميع نواحي الوجود العينية والغيبية.

2 - الرؤيا المتحولة:

ويعني بذلك أن البرزخ هو لحظة انتقالية مؤقتة، أو هو مرحلة عبور بين شيئين متقابلين، والرؤيا في هذا المستوى تدل على معاني التحول للموجودات، سواء أكانت هذه الموجودات حسية أم معنوية؛ هذه الرؤيا البرزخية المتحولة تمكّن من الجمع بين المتناقضات، لتكون بذلك قراءة تأليفية فيما بينها.

الرؤيا المجسدة:

للبرزخ قدرة على تجسيد المعاني، وجعلها في صور خيالية، وذلك في عالم الرؤى والأحلام؛ تلك الصور والأحلام لا تخضع لقواعد العقل، أو لمنطق الحواس، وإنما هي رموز تخضع للتأويل والتحويل، تماماً كما يجسد العلم في صورة اللين⁽²⁴⁾.

من أجل ذلك، ينبغي أن يتم تناول الصور، في عالم البرزخ بمنطق الرؤيا، لأنها لا تخضع لمنطق الزمان ولا

المكان؛ فعالم البرزخ يأخذ الرائي إلى عوالم كانت، وإن لم تكن، كأنها كانت، وذلك في الماضي السحيق، وكيف ستكون وذلك في المستقبل البعيد.

تتم الرؤيا لعناصر الوجود بواسطة الخيال الذي يقابل بين الطرفين، يتوسطهما، ويقارب بينهما، إلى حد يصل إلى أن يوحد بين تلك المتقابلات؛ وهو قائم بذاته، لا يقبل الانقسام، وهو واحد، "والواحد يُقسَم، ولا يُقسَم أي لا ينقسم في نفسه... والبرزخ يُعلم ولا يدرك، ويعقل ولا يشهد" (25).

بهذا المفهوم للبرزخ تتكون رؤيا جامعة، وشاملة، ومعقولة، وبرزخية، وذلك بواسطة الخيال، هذه الرؤيا تتكون من جانبين:

أ - الجانب النفسي:

وهو وسيلة الإنسان للمعرفة، ويسمى بالرؤيا الخيالية، وهو على نوعين، "منه ما يوجد عن تخيل، ومنه ما لا يوجد عن تخيل كالنائم. ما هو عن تخيل ما يراهم الصور في نومه؛ والذي يوجد عن تخيل ما يمسه الإنسان في نفسه من مثلاً أحس به، أو صورته القوة المصورة، إنشاءً لصورة، لم يدركها الحس من حيث مجموعها، لكن جميع آحاد المجموع لا بد أن يكون محسوساً" (26). وبذلك، فإن الرؤيا الخيالية المتصلة ترتبط بالمتخيل، وتذهب بذهابه، ويكون المتخيل في هذه الحالة هو الإنسان، والخيال النفسي هو خيال متصل، كما يرد على النائم بفعل غير إرادي، وقد ينجم عن فعل إرادي، قادر على الاحتفاظ بالصور المدركة بواسطة الحس، أو أن يؤلف بينها، أو يبدع صوراً جديدة ليس لها وجود في الحس، ولو كانت عناصر تلك الصور منتزعة من صور حسية (27).

ب - الجانب الوجودي:

ويتمثل ذلك في بعدين؛ البعد الحسي العيني، والبعد الغيبي، ويسمى بالرؤيا الخيالية المنفصلة، لأنه "حضرة ذاتية، قابلة دائماً للمعاني والأزواج، فتجسدها بخاصيتها، ولا يكون غير ذلك، ومن هذا الخيال المنفصل يكون الخيال المتصل" (28).

إن هذه الرؤيا الخيالية المنفصلة المطلقة تعتبر الحضرة المعقولة، وفيها يتجلى الحق بأعيان صور الممكنات: "تلك الحضرة البرزخية، هي ظل الوجود المطلق من الاسم النور، الذي ينطلق على وجوده، ووجود الأعيان ظل لذلك الظل، والضلالات المحسوسة ضلالات هذه الموجودات في الحس، ولما كان الظل في حكم الزوال لا في حكم الثبات، وكانت الممكنات، وإن وجدت، في حكم العدم، سميت ضلالات، ليفصل بينها وبين من له الثبات المطلق في الوجود، وهو واجب الوجود سبحانه" (29).

وبذلك، فإن حضرة الخيال هي أوسع الحضارات، لأنها تقبل كل شيء بذاتها، وإن كان محالاً، لا يمكن تصور وجوده، وهو بذلك وسيط كلي، ينتظم الوسائط كلها، التي يتجلى الحق عبرها في صور ليست سوى وسائط خيالية برزخية.

مما سبق ذكره، يتبين لنا أن الرؤيا الصوفية بجانبها النفسي والوجودي، وفاعليتهما البرزخية هما الأساس في فهم العالم، وإدراك وجوده، من خلال صور أعيان الممكنات بمراتبها المختلفة (30). والانتقال من حالة الاتصال عبر الرؤيا، إلى حالة الانفصال في بعدها الوجودي، إنما يتم بواسطة التجليات، هذه التجليات هي التي تقوم بحفظ الصور الخيالية، وكل ذلك هو شأن الحق سبحانه، لا يقف عندها، ولا يدركها سوى قلب العارف (31).

الرؤيا البرزخية عند أدونيس:

تقوم الرؤيا عند " أدونيس " على الجمع بين المتناقضات التي تقيمها المنظومات المعرفية الشائعة، معتمداً في ذلك على معادلة كيميائية، تذيب العناصر فيما بينها، وتحولها إلى طبيعة جديدة، سالكا طريقاً جديداً في الكشف عن الحقائق، والإشارة إليها؛ هذا الطريق هو طريق اللاشعور والحدس.

إن اللاشعور في رؤيا " أدونيس " هو منطقة الظل أو البرزخ، وهو لون بين الظلام والنور، ووسيط بين الحدس المباشر، والعقل الواعي المحلل.

يقول " أدونيس " ⁽³²⁾: "كنت مع قلة مأخوذاً بالهبوط، على العكس في الظل، في هذا الليل الشفاف الذي يتعانق فيه الوضوح والغموض، ويتحركان في موجة واحدة". غير أن الليل لدى الشاعر، ليس بالمعنى المتداول؛ إنه ليل يغري بالكشف والمغامرة، فتلتقي فيه المتناقضات؛ بين المعرفة المباشرة، والرؤى المحجبة، في عالم برزخي، قابل للتشكل والتحول باستمرار.

إن المعرفة الحقيقية إنما هي وليدة اللاشعور، أي الظل أو البرزخ، وذلك حين يتقصى الإنسان خفايا الوجود، ومنها أفاصي النفس، يُحاورُ، ويكشف عبر الرؤى والأحلام حقائق الوجود في منطق بنائه، وسرّ جماله، معتمداً في ذلك على الخيال، من حيث طبيعته، والعناصر المشكلة له.

تمثل رؤيا " أدونيس " حضوراً فكرياً، وإبداعياً، لأنها خلخلت المسلمات التي أصبحت راسخة في الفكر العربي، إذ وقف الشاعر في وجه ثقافة عربية تقليدية، تخضع لنظام معرفي يرسخ المعيار والنموذج في كل شيء، بداية من الذات في بنائها، وفي تطلعاتها، إلى المجتمع في تركيبه وسيرورته، فكان جوهر الإبداع لديه رفضاً لما هو قائم من أوضاع سائدة، ويتجلى هذا الرفض في الحلم القائم على التخيل لواقع يطمح الشاعر من خلاله إلى تصحيح الرؤى، فكانت اللغة في تشكيلها، ومنطق بنائها إشارات جمالية تحمل أبعاداً دلالية، تبدأ من الذات، إلى البعد الجماعي العربي، لتشمل البعد الإنساني، فالوجودي.

ويمكن أن نرصد الأبعاد الجمالية للمنطقات الوجودية لدى الشاعر فيما يلي:

أولاً: البعد الجمالي للخيال المتصل:

وظف " أدونيس " عناصر الطبيعة توظيفاً فنياً متفرداً، متخذاً إياها وسيلة للإصغاء إلى الحقيقة، وأشكال تجليها، منطلقاً منها، ومستلهماً من معانيها، ومن حركاتها، وانتظام إيقاعاتها رؤياً تكشف عن إيقاع الإنسان وانتظامه، باعتباره عنصراً من عناصر هذا الوجود.

يقول الشاعر في قصيدة "فصل الحجر" ⁽³³⁾:

لو كنتُ ثمرة لرأيتني
أسافر بالورق وغير الورق
بالبراعم والغصون
بالهواء وشعاع الشمس
ثم أترجعُ
أتللمُ
أتجمَعُ
وأسقط في نفسي ناضجاً وعمودياً
لو بقيت حلماً

تكشف هذه الأبيات عن حلم لواقع يطمح الشاعر إلى تغييره، منطلقاً في ذلك من عناصر الطبيعة بالإصغاء إلى لغتها القائمة على الحركة والتجدد في كل آن. فكان خيال الشاعر بذلك خيالاً متصلاً، لأنه يقوم على الخيال الوجودي من حيث المعرفة والوظيفة، ويتصل بملكات الإدراك والوعي لدى الإنسان المتأمل. ويقول في:

"فصل الصورة القديمة"⁽³⁴⁾

لابسا قامة الريح

وأعودُ إلى نصفي القديم

في الضفاف الحزينة في آخر الصحارى

يوظف الشاعر كلمة "الهواء" توظيفاً رمزياً، لأنه يدل على معنى البعث والتجديد، ويدخل في صميم الحركة والتحول الذي يقوم عليه الوجود، فيحقق الشاعر بذلك ذاته من خلال معنى الصعود، "لابسا قامة الريح"، والعود بعد ذلك إلى نصفه الآخر القديم، لتكون للرؤيا فعلها في خلقة القيم، لأن كلمة "الهواء" تدل على الحركة، وعلى التغيير.

حملتني الرياح...

وسمعتُ الغصون وهي تتلو قوانينها، فخشعتُ

ولبستُ الطبيعة⁽³⁵⁾

يتوحد الشاعر بعناصر الطبيعة، ويصغي إلى لغتها، ومنطق حركاتها، فتكون الكتابة عنده إبداعاً قائماً على نقض الكتابة السائدة في منطق تفكيرها وبنائها، واعتماد لغة الرمز، باعتباره وسيلة يرتاد الشاعر عبره آفاقاً واسعة، ليشمل الوجود في جميع مستوياته.

ثانياً: البعد الجمالي للخيال المنفصل

تكمُن جمالية الخيال المنفصل في كونه خيالاً وجودياً، لأنه يشمل الوجود في جميع مراتبه، وذلك من حيث الموجودات المادية، أو الجوانب الروحية على حدٍّ سواء، كل ذلك يخرج الإنسان من دائرة العلاقة البسيطة مع الوجود من حيث المنفعة القريبة، أو الإحساس العابر، إلى علاقة أكثر عمقا وشمولاً، لأنه يصبح منفثاً على لغة الوجود، لأن الوجود لغة، كما أن الوجود كلمات، فتكون اللغة بذلك صوراً رمزية للوجود بجميع مراتبه. تقوم الرؤيا الوجودية لدى "أدونيس" على أمرين اثنين:

- أما الأمر الأول فتمثله اللغة، باعتبارها دالة على الوجود في بنائه وتجليه.
- وأما الأمر الثاني فتمثله المرأة، باعتبارها سر الوجود، وسر حركته واستمراره.

أولاً: اللغة/الوجود:

تقوم الأشياء على الحرف، لأنه لا تسمية خارج الحرف، وبذلك فإن الإنسان في عمق وجوده ليس سوى حرف.

يقول ابن عربي⁽³⁶⁾: إن الوجود لحرف أنت معناه وليس لي أمل في الكون إلاّ

الحرف معنى، ومعنى الحرف ساكنه وما تشاهد عين غير معناه

ينطلق "أدونيس" من هذه الرؤيا ليعيد الوجود إلى أصوله، ومنطق تشكيله، وتوالده بوساطة اللغة في منطق تشكيلها وحركاتها، وتحولاتها.

شعري لغة الأرض هناك
 في الحبر والورق
 في الحروف آتٍ آتٍ
 أسافر خارج الصيغ، الشكل ونقيضه
 في لغة تعبر الكلام، كأن المطر لغة تتساقط
 كأن الكلام أرضه والمطاف
 رقص الوقت يجيء
 يبلغ العتبة

الوقت يجلس بين القلم والورق⁽³⁷⁾.

إن الوجود في أصله، وفي منطق بنائه قائم على تواشج المتناقضات في عالم برزخي، حيث يتوقف الزمن في دورته وتعاقبه، بين وجود غيبي، ويمثلها الحرف/ القلم قبل تشكيله، ووجود حسي، ويمثله الورق بعد فعل الكتابة؛ كتابة الوجود، وإعادة بنائه برؤى جديدة، هذه الكتابة ليست سوى إشارات لوجود قابل للحركة والتحول باستمرار. يبدأ الشاعر تجربة الكشف والبناء لعوالم جديدة، تصوغ لعلاقات جديدة بين عناصر الوجود، عبر الرفض، وعبر تبني أدوات جديدة للكشف، فتبدو بذلك كتابات أدونيس رموزاً، وإشارات لحركة التاريخ وتطوراتها، وللزمان في فعله وانحناءاته، وللمكان في صراعه وتناقضاته. ورؤيا الشاعر في كل ذلك:

برزخ
 والتيه مرسوم
 على كل فضاء
 واليقين
 الآن شحاذ⁽³⁸⁾

ثانياً: المرأة/الوجود:

يقوم الوجود، في رؤيا "أدونيس"، على الحركة، وعلى التوالد المستمر عبر اللغة أولاً، وعلى التزاوج بين عناصره ثانياً، منطلقاً في ذلك من الرؤيا الصوفية القائمة على النكاح الكوني المتجدد. يقول ابن عربي⁽³⁹⁾:

كل ما فيه نكاح وزدواج هو مقصود لأرباب الحجاج
 فإذا أنتجني أنتجته فترانا في نكاح ونتاج

تحمل عبارة "النكاح" التي تدل على معنى الزواج، على أنّ ثمة صلة بين الذات والآخر، ويرى ابن عربي على أن النكاح علم من شأنه أن يكشف لنا عن أسرار الوجود بجميع أبعاده الغيبية، والمادية، والروحية، وبذلك فهو يبعد عن الجانب الحسي، ويمتد ليشمل عالم الكليات المعقولة.

إن معنى التوالد مرادف للحركة، هذه الحركة هي حركة كونية، ومن الحركة السارية في الكون، "تتوالى المعاني أو التجليات على الممكنات، ويتجدد الخلق باستمرار"⁽⁴⁰⁾.

يقول "أدونيس" وهو يخاطب المرأة المعشوقة⁽⁴¹⁾.

صيري وجهي الطالع في كل وجه
شمس لا تطلع من الشرق، لا تغيب في الغرب
أصعد إليك، هابطا إليك
اغترب الجسد
مسه التحول
بعدها تنفياً سرادق الجسد
حيث يستدير كوكب الجنس
يصير ثدياك الليل والنهار

ترتسم صورة الوجود الشعري البرزخي بعد أن يغترب الجسد، ويمسه التحول، وينفياً الشاعر سرادق الجسد، فتغيب الأشياء عن منظورها المحسوس، لترتسم عملية التحول، بعد أن يصير الثديان الليل والنهار، إشارة إلى أصل الوجود القائم على النكاح بين الذكر والأنثى، لأن الوجود هو تركيب من صفتين مختلفتين، فتجتمع لدى الكائن صفتي الأنوثة والذكورة، فيكون النور الزماني حاملاً لهذا المعنى، "تارة يكون النور ذكراً، وتارة يكون أنثى"⁽⁴²⁾. فيكون النور بذلك حاملاً لصفة خنثى، يجمع بين متناقضين في عالم الحس، لكنهما يكتملان في الرؤيا البرزخية، ولا ينتقلان من صفة إلى أخرى إلا بفعل الحركة والتحول، وذلك عبر الزواج، أي الوصل بين الأنوثة والذكورة، ليكون بذلك الوجود⁽⁴³⁾.

بناء على ما سبق ذكره، يمكن الوقوف عند بعض من أسرار الإبداع لدى "أدونيس" الشاعر، إذ أن إبداعه قد تمثل في تلك الصيغ التي تشد القارئ، وتبعثه على التأمل، والإحساس بفاعلية الخيال، عبر صيغ فنية متفردة، تكشف عن ذات متألمة حاملة، بواسطة خيال متفرد أيضاً.

ويمكن أن نستجلي بعضاً من جوانب الإبداع لدى الشاعر، فيما يلي:

أولاً: الرؤيا المتصادمة مع العالم، في منظومته المعرفية، ومع الأدوات التي أسست لوجوده.

ثانياً: اعتماد الخيال المبدع، الذي يبنى أساساً على الرؤيا/الحلم، وذلك في استجلاء العوالم الخفية؛ كل ذلك أدى إلى تشكيل صور شعرية متفردة، تعتمد على رؤيا برزخية، بين الخيال المتصل/الحلم، والخيال المنفصل/الوجود. ومن الرؤيا البرزخية الجامعة بين الخيال المتصل، والخيال المنفصل، يبني الشاعر صوراً شعرية تخرق كل مألوف، لأنها تخضع لرؤيا برزخية في موادها، وفي منطق بنائها؛ ويمكن أن نشير إلى نوعين من الصور التي انبجست عن تلك الرؤيا، وهي: "الخيال الكوني"، و"الخيال التحويلي"⁽⁴⁴⁾.

أولاً: الخيال الكوني:

يعتمد الخيال الكوني على بناء علاقات جديدة فيما بين العناصر، وذلك بالعدول عن المنطق المادي المألوف، في الربط بين تلك العناصر، وبمنحها هويات جديدة، متحولة على الدوام، تلك العناصر هي مزيج بين ما هو حسي، وما هو غيبي، فنلتقي في رؤيا برزخية، فتتشكل صور متفردة مبدعة، تتطلق من حالة الاتصال في الرؤيا/الحلم، المتعلقة بالوعي/العلم، إلى حالة الانفصال في بعدها الوجودي، وذلك عبر تجليات خيالية وفي توالد مستمر؛ وهي ليست من عالم الغيب، أو المعاني المجردة، لأنها تجلت من خلال الصور، كما أنها ليست تنتمي إلى عالم الحس المباشر، لأن تجليها ذلك أمر عارض، قابل للتحول باستمرار.

ثانيا: الخيال التحويلي:

يعتمد هذا النوع من الخيال على تقنية التحويل في الهوية، لأنها تنتمي إلى الحلم/ النفس، فتكون الصور في دائرة الخيالي، الذي هو بين الوجود والعدم، وهو موطن الممكنات، والسعة والإمكان لكل ما ليس ممكناً، فتكون الكتابة الشعرية كما الكتابة الصوفية؛ كشفاً وتحولاً، وتجديداً مستمراً، ليست تحكمها قواعد ثابتة، ولا قوالب جاهزة، ضمن رؤى العقل القائمة على ضبط الأشياء، بمنطق الحس والمشاهدة.

خاتمة

مما سبق ذكره، نخلص إلى أن "أدونيس" قد تبني الرؤيا الصوفية في بعض مواقفه النقدية، وفي كتاباته الشعرية، فكانت لغته إشارية، تتواشج فيها الأضداد، والمتناقضات، لغة تجمع بين الحس والعقل، وتقوم في منطقة الظل/ البرزخ، وذلك في حضرة الخيال، لأنّ "الخيال أوسع بلا شك [وهو] لقوته أوسع الكائنات. ويقبل الصور الروحانيات، وهو التشكل في الصور المختلفة من الاستحالة الكائنة⁽⁴⁵⁾.

تلك الصور قائمة على الحركة والتحول، لأنها في منطقة الظل/البرزخ، ليعبر الشاعر بذلك عن قضايا الوجود في سرّ بنائه واستمراره، وذلك عبر الحرف، وأشكال تجلياته، وعبر فكرة الأنوثة؛ سبب الوجود، في أصله وسرّ حركته وتحولاته.

الهوامش:

- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1779، ص، 134.
- 1 - النّفري، محمد بن عبد الجبار بن الحسن: كتاب المواقف، ويلييه كتاب المخاطبات، تصحيح آرثريوحنا أربري، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص9.
 - 2 - خالد بلقاسم: أدونيس والخطاب الصوفي، دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص181.
 - 3 - النّفري: كتاب المواقف، ص69.
 - 4 - يحي الراوي: مواقف النّفري بين التفسير والاستلهام، جمعية الطب النفسي التطوري والعمل الجماعي، القاهرة، ط1، 2000، ص47.
 - 5 - ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، تحقيق عثمان يحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص16.
 - 6 - منصف عبد الحق: الكتابة والتجربة الصوفية، نموذج محي الدين ابن عربي، منشورات عكاظ، الرباط، ط1، 1988، ص63.
 - 7 - أدونيس، علي أحمد سعيد، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط1، 1972، ص09.
 - المرجع نفسه، ص09.
 - أدونيس:خواطر حول تجربتي الشعرية، مجلة الآداب، السنة 14، عدد 03، ص 195.
 - 8 - أدونيس:زمن الشعر، ص12.
 - 9 - علي جعفر العلاق: في حداثه النص الشعري، دراسة نقدية، دار الشؤون الثقافية، آفاق عربية، العراق، ط1، 1970، ص34.
 - 10 - انظر على سبيل المثال: كاظم جهاد: أدونيس منتحلاً، دراسة في الاستحواذ الأدبي، وارتجالية الترجمة، مكتبة مدبولي، 1993.

- وانظر أيضا: د. سفيان زداقة: الحقيقة والسراب، قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، مرجعا وممارسة، منشورات دار الاختلاف، ط1، 2008، ص 342، وما بعدها.
- 11 -انظر: أدونيس: السوربالية والصوفية، دار الساقي، بيروت، ط2، 1995.
- 12 -محي الدين ابن عربي:فصوص الحكم، تحقيق أبو العلاء عفيفي، 1980، ص159.
- 13 -العربي الذهبي: شعريات المتخيل، اقتراب طاهرتي، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص58.
- 14 -المرجع نفسه، ص58.
- 15 -محي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص406.
- 16 -العربي الذهبي: شعريات المتخيل، ص75.
- 17 -محي الدين ابن عربي: الخيال، عالم البرزخ والمثال، جمع وتأليف محمود الغراب، دار الكتاب العربي، دمشق، ط2، 1993، ص08.
- 18 -المرجع نفسه، ص08.
- 19 -المرجع نفسه، ص09.
- 20 -ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص460.
- 21 -المرجع نفسه، ج3، ص518.
- 22 -المرجع نفسه، ج32، ص311.
- 23 -ابن عربي: الخيال، عالم البرزخ والمثال، ص12.
- 24 -نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 197، المرجع نفسه، ص54.
- 25 -ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص311.
- 26 -9، ص54.
- 27 -أدونيس: كتاب الحصار، دار الآداب، ط1، 1985، ص41.
- 28 -كمال أبو ديب: هذا الكتاب، مجلة فصول، مج 16، العدد الثاني، خريف 1997، ص243.
- 29 -ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص311.
- 30 -أدونيس: ديوان كتاب التحولات والهجرة ي أقاليم النهار والليل، دار الآداب، بيروت، ص128.
- 31 -المرجع نفسه، ص57.
- 32 -المرجع نفسه، ص76.
- 33 -ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص330.
- 34 -أدونيس: ديوان التحولات والهجرة، ص142، 143.
- 35 -أدونيس: ديوان هذا هو اسمي، وقصائد أخرى، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1996، ص383.
- 36 -ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص371.
- 37 -نزهة براصة: الأنوثة في فكر ابن عربي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص78.
- 38 -أدونيس: ديوان التحولات والهجرة، ص88.
- 39 -ابن عربي: الفتوحات المكية، ج2، ص521.
- 40 -نزهة براصة: الأنوثة في فكر ابن عربي، ص57.
- 44 -كمال أبوديب: هذا الكتاب، مجلة فصول، مج 16، العدد الثاني، خريف 1997، ص243.
- 45 -ابن عربي: الخيال، عالم البرزخ والمثال، ص 12.

قائمة المراجع:

- 1 - أدونيس، علي أحمد سعيد، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط1، 1972.
- الثابت والمتحول، بحث في الإبداع والإلتباس عند العرب، ج4، دار الساقي، بيروت، 2006.
- السوربالية والصوفية، دار الساقي، بيروت، ط2، 1995.
- خواطر حول تجربتي الشعرية، مجلة الآداب، السنة 14، عدد 03
- كتاب الحصار، دار الآداب، ط1، 1985.
- ديوان كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل، دار الآداب، بيروت.
- ديوان هذا هو اسمي، وقصائد أخرى، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1996.
- 2 - اعتدال عثمان: إضاءة النص، قراءات في الشعر العربي الحديث، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1988.
- 3 - جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979.
- 4 - خالد بلقاسم: أدونيس والخطاب الصوفي، دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.
- 5 - ابن عربي (محي الدين): الفتوحات المكية، ج3، تحقيق عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974.
- الخيال، عالم البرزخ والمثال، جمع وتأليف محمود الغراب، دار الكتاب العربي، دمشق، ط2، 1993.
- فصوص الحكم، تحقيق أبو العلاء عفيفي، 1980.
- 6 - العربي الذهبي: شعريات المتخيل، اقتراب ظاهري، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2000.
- 7 - د. علي جعفر العلاق: في حداثة النص الشعري، دراسة نقدية، دار الشؤون الثقافية، آفاق عربية، العراق، ط1، 1970.
- 8 - كمال أبو ديب: هذا الكتاب، مجلة فصول، مج 16، العدد الثاني، خريف 1997.
- 9 - النّفري، محمد بن عبد الجبار بن الحسن: كتاب المواقف، يليه كتاب المخاطبات، تصحيح آرثريوحنا أبري، مكتبة المنتبى، القاهرة.
- 10 - نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1979.
- 11 - نزهة براضة: الأنوثة في فكر ابن عربي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- 12 - محي الراوي: مواقف النّفري بين التفسير والاستلزام، جمعية الطب النفسي التطوري والعمل الجماعي، القاهرة، ط1، 2000.